قصة قصيرة

انتظار

جانسيت برقوق شامي

ذات مساء... كل مساء، نجلس في مقهى في وسط البلد الغارق في الغبار والجفاف، محاطين بالجبال والتفكير. نفكّر بالإسرائيليّين... ما هي خطواتهم التالية يا ترى؟ نفكّر بالأمريكان، بانتظار أن يغزو الشاشة الصغيرة وجه رئيسهم الهادئ... بانتظار المساعدة من أشقّائنا العرب الأغنياء.

نحاول العثور على طريقة لوضع قرش على قرش. نحاول اكتشاف طريقة للاحتفاظ بالقرشين معاً إلى أن نكسب الثالث.

الله الله على ثقل القروش في الجيب!

أنا موسيقي وبحاجة إلى المال لأشتري أدواتي، فبدون مال لا يمكنني الحصول على الأدوات وبدون أدوات لا يمكنني الحصول على المال. تثير اهتمامي المتناقضات والمتشابهات، لأنني عربي... فيلسوف. أنا عربي لأنني فيلسوف. بيد أن الأفواه المجترّة المعروضة على الشاشة تظهر أن ليس جميع الفلاسة عرباً. ماذا يساوي هذا العالم؟

تلك الليلة صادفت فرقتنا «أصدقاء من فلسطين» بعض الحظ، إذ جاءني صبيّ أعرفه من مخيّم الحسين. اقترب من طاولتنا التي يلفّها دخان السجائر وقال «اسمع يا يوسف. هذه الليلة سأتزوّج. ما رأيك بشيء من الصخب؟» نعم «صخب» ـ هكذا قالها ذلك الصبي اللاجئ الذي أصبح الآن رجلاً. حقّاً إنه لوصف مناسب لما نفعل. وهل نفعل سوى الصخب؟ صخب... صخب مغبر من حولنا.

وماذا بوسعنا أن نفعل غير ذلك؟ فأنا أدرس المحاسبة في إحدى كليّات المجتمع ولا وقت لديّ للتدرّب على العزف أثناء النهار... وصلاح عازف الأورغ، الشاب الوسيم ذو الرأس الكبير والشعر الأجعد يعمل مساعد بلاّط. «يجبل» الأسمنت في الخارج ويحمله إلى داخل المباني. كل صفيحة «باطون» يحملها على كتفيه تزن عشرة كيلوغرامات ونيّفاً. أمّا طبّالنا فهو «كهربجي» قدماه الكبيرتان المعلّقتان بساقيه النحيلتين تصعدان وتنزلان السلّم طوال النهار، حيث يحفر ثقوباً في الجدران ويمدّ أسلاكاً عبر مساربها الضيّقة.

ولهذا أقضي الليل في حساب أموال الآخرين على أوتار قيثارتي. علي يضرب بعصيّه بثبات على المواقع نفسها من طبوله. عصيّه الرفيعة مطارق ثقيلة، وجلود طبوله جدران حديثة الطلاء خلف أجفان مغمضة لعينين ناعستين. يدا صلاح تسقطان كالطوب على الأورغ. والأسمنت الذي يحمله يصلّب أصابعه ويتجمّع تحت أظافره.

* * *

نرتّب معدّاتنا على سطح المنزل المكوّن من غرفتين. هذا السطح نقطة في بحر أسطح المخيّم، أسطح مخيّم لاجئي الـ ٤٨، أسطح لاجئي الـ ٦٧ تمتدّ إلى حافّة التلّة وتتموّج بارتفاعاتها المختلفة قليلاً.

مطربنا «الترانزستور» سمير، يأتي قبل بدء الحفلة بنصف ساعة مرتدياً لفحته البوليستير ١٠٠٪. يخفض حامل المذياع، يحني مقبضه إلى أسفل ليلائم قامته القصيرة. يغطّي المذياع بقطعة من الإسفنج برتقاليّة اللون لتخفيف الصوت الأجشّ الذي ينبعث من حنجرته

عندما يغنّي. أرتّب «بدالاتي» من اليسار إلى اليمين: سكريمر، دستورشن.

موسيقى «الديسكو» العربية التي نعزفها لا تنطوي على أية مخاطر. معدّاتنا تحمينا من مستمعي الأمس واليوم. فالمستمعون لا يمكنهم تقدير كفاءتنا الموسيقيّة الحقيقيّة.

ـ ما أَقْدَرَهُ على القيام بدستورشن لصوت قيثارته! يعلّق أحد المستمعين الشباب على عزفي.

إذن «دستورشن» (تشويش) موسيقاي منها وفيها. إلّا أن أثر «بدالة» الدستورشن البادية للعيان هو الذي يدفع المستمع لقول ذلك. قيثارتي البالية المغطّاة بملصقات لشركات موسيقيّة عديدة، هي من نوع «فندر». فندر من صناعة تايوان، وهي تقليد «أصلي» لفندر الأمريكية.

اللوحة من نوع «هاموند» وهي آلة أمريكية صنعت في أحدث مصانع كوريا التي مزّقتها الحرب. صلاح يدفع جلّ ما تجنيه يداه من حمل صفائح الإسمنت إلى صاحب محل الأدوات الموسيقية الذي اشترى منه اللوحة. وإذا ما قرّر صلاح الزواج في السنوات الثلاث القادمة من فتاته المثيرة ـ وهو ما قد يفعله ـ فإن مصاريف الزفاف وفتح بيت ستؤدّي إلى وقف الدفعات الشهرية. وسوف يسلّم صاحب المحل الكمبيالات للمحامي الذي سيجلب «صلاح» إلى المحكمة. لكن هذا لن يغيّر من الأمر شيئاً، وإن تغيّر شيء فللأحسن، إذ لن يكون مضطرّاً لدفع شيء أثناء جلسات المحكمة وربّما يتوصّل القاضي إلى قرار. بعد انتهاء المحاكمة، سيطلب منه دفع كامل المبلغ، ولكن...

ـ الله كريم!

طبول علي رخيصة، اشتراها مستعملة ودفع ثمنها نقداً. على أية حال، علي «كهربجي» ويكسب أكثر من أيٍّ منا.

* * *

يبدأ ضجيجنا. يصدر أولاً كأزير طائرات التجسس الإسرائيلية الجديدة. وهذه لعبتي الخاصّة، أؤدّيها على القيثارة. ثمّ تتكفّل الطبول بردم السماء والأرض على رؤوس المستمعين. فجأة، وعندما نرى العريس متأبّطاً ذراع عروسه، ينضمّ إلينا صوت سمير الهادر فيعلو الصخب. وتتحلّق حول العروسين قريباتهما. تحت ثيابهنّ المقوّرة التي يهديها لهنّ العريس، ترتعش صدور في منتصف العمر. زغاريدهنّ تكمل موسيقانا. موسيقانا تكمل زغاريدهن. نحن عائلة واحدة.. سعيدة... غير سعيدة.. صاخبة. نحاول نسيان الغد بانتظار المعجزات.

ثم نبدأ بتناول المنسف. عريس اليوم، صبي الأمس، يخبرنا بأنه يعمل مراسلاً في معهد أجنبي. مبنى المعهد يقع بجانب معهد آخر. وتبدو له أهداف المعهدين واحدة. ثمّة ممرّ ضيّق بينهما. ومحمود يحمل وثائق وتقارير هامّة من أحدهما للآخر. ولقاء ما يفعله يدفعون له ثلاثمائة دولار شهرياً. وهو يؤكّد أنهم يدفعون له بالدولار. أمريكا بلاد عظيمة والدولار لا يفقد قيمته. نحن الموسيقيّين، بمن فينا المطرب، نستمع له، نحبس غيرتنا في قلوبنا بقدر المستطاع ونقدّمَ له التهاني.

بدلة العريس الطويل الوسيم الذي كبر فجأة، رماديّة اللون، مصنوعة من مزيج من النايلون والبوليستير اللامع. حذاؤه الجلدي ذو الإبزيم البلاستيكي يذكّرني بأحذية الغلمان في المسرحيات التلفزيونيّة الأوروبيّة. شعره الأسود الطويل، المدهون بزيت الشعر حتى فروة رأسه ووجنتيه، مفروق من الوسط.

ينعش العشاء موسيقانا. إيقاعها النابض يحرّك الصبايا من مقاعدهنّ ويدفعهنّ إلى حلقة الرقص الضيّقة. يربطن حول أوراكهنّ مناديل ملوّنة ويهززن كل ما يهتزّ في أجسادهنّ الغضّة. انغماسهنّ في البهجة يبعد عن أذهاننا الشكوك حيال المستقبل. عيونهنّ المتألّقة تخرجنا من أزقة الماضي، فنقع أسرى للحظة وسجناء لمحاجر العيون العسليّة. نرتاح في حضن الحاضر ما دام الرقص يجعلنا نحلّق. يبتسم علي فيكشف عن سنٍّ ذهبيّة في أحد جانبي فمه، ويبتسم صلاح فيكشف عن أسنان مستوية ولثة ورديّة. أقفز عن نوتة أو اثنتين في محاولة يائسة لضبط النفس، مطبقاً شفتيّ بقوة على أسنان مصبغة.

* * *

يفوتني المشهد المهيب... دخول خمسة من رجال الشرطة عبر الفتحة المؤدّية إلى السطح. ولكنني أشهد سقوط أحدهم، ذلك الشرطي الطويل القامة، على الأرضيّة الإسمنتيّة الخشبيّة متعثّراً بمواسير المياه الممدودة على السطح كيفما اتفق. لكنه لا يصاب بأذى، وينهض ممسكاً بأحد أزرار بزّته العسكرية الضيّقة. أمّا الأربعة الآخرون فيسيرون نحونا بخطى واثقة محسوبة ويصرخون. يصرخ قائدهم أولاً. ثم يصرخ الآخرون بصوت واحد. يمسكون بأذرعتنا ويقتادوننا بعيداً عن معدّاتنا.

يهرع الناس إلى الأسطح المجاورة...

«لقد حرمتمونا من النوم». يتمتم بعضهم باعتذار. أحاول أن أحزر تحت أي سقف يختبئ الهاتف الواشي. أحاول أن أحزر لونه. هل هو أحمر؟ من الذي أجرى المكالمة؟ الأب؟ ماذا قال للشرطي الذي ردّ على الهاتف؟

يغادر العريس مقعده إلى جانب عروسه ويهبّ لنجدتنا. يهجم على الشرطي الطويل الذي ما زال ممسكاً بزرّ بزّته المقطوع فيعيده إلى الأرض ويفلت الزرّ من قبضته ويختفي هذه المرّة. أين؟ في أحد المجاري، ربّما؟ من يدري؟

- الله وحده أعلم.

يمسك بالعريس شرطيان ويدفعانه نحونا، فتحمله خطواته المندفعة إلى قلب مقدمتنا المتماسكة. تفضح بدلته الرمادية المصنوعة من النايلون ملابسنا التي اشتريناها من «البالة» مثل ضوء «نيون».

خمستنا، الموسيقيّين والعريس، وخمستهم، رجال الشرطة الأربعة إلى جانب ذلك الشرطي الطويل الذي فقد زرّ بزّته، نسير بسرعة إلى مخفر الشرطة. خمستنا نذهب إلى أبعد من ذلك ونرسل في رحلة إلى السجن المزدحم. في اليوم التالي يطلقون سراحنا ولكنهم يحتفظون بالعريس... العريس الذي دفع لنا ثمن الصخب الذي أحدثناه... العريس الذي اشترى الثياب لشقيقات العروس ذات الوجه الطفولي ولعمّاتها وخالاتها العديدات، يبقى في السجن.

* * *

يجلس في زنزانته، يفكّر بالإسرائيليين... ماذا عساهم يفعلون في المرّة القادمة؟ يفكّر بالأمريكان... وقلّما تحدّث قائلاً: ما هي الكلمات الجوفاء التي تخرج من بين شفتي رئيسهم؟ فعندما يتحدّث الرئيس، وكلّما تحدّث قائلاً: «السلام في الشرق الأوسط «هو» «is» فإن كلمة «is» هي الكلمة الوحيدة التي يكترث بها وهي فعل مضارع. لقد كان محمود الأول في صفّه ويعرف تصريف الأفعال:

أنا مراسل
أنت رئيس
محمد رسول الله
نحن الضحايا
أنتم لامبالون

إنهم يقتلوننا. يقتلوننا بالرصاص المطّاطي، بالغاز المسيل للدموع، يقتلون شبابنا، يقتلون كرامتنا!

لا فائدة تجنى من تصريف الأفعال. لا فائدة تجنى من التفكير بوجه عروسه الطفولي. ولذلك فهو يحصر أفكاره في همومه اليوميّة. فيحاول إيجاد طريقة لوضع قرش على قرش. من يدري، ماذا يحمل المستقبل؟ يوقف التفكير في كافة الأفكار وينتظر الإفراج... إنه ينتظر.

* * *

عروسه ذات الوجه الطفولي، تقدِّم القهوة لحماتها وتصغي إلى نهر الحنين المتدفّق مع دموعها:

سنابل قمحنا تتماوج برقّة، في الماضي... برتقالنا الثقيل يجذب الأغصان إلى أسفل، في الماضي. في مواسم «جدّ» الزيتون، يملأ الزيت جرارنا التي تطاول الركب، في الماضي. صبايانا يغنين ويرقصن، وشبابنا يفتلون شنباتهم، في الماضي. فلسطين تتألّق، الفلسطينيون يزدهرون في الماضي.

الآهة تلو الآهة... الآهة تلو الآهة. يدان جافّتان ترسمان دوائر ومثلّثات في الهواء. ترسمان أشكالاً هرميّة ومخروطيّة في الهواء. العجوز تنتظر عودة ابنها، تنتظر مستقبلاً يشعّ كمليون نجمة في سماء فلسطين الصافية، في الماضي.

عمّان (الأردن)